نحـــو النـــص

Text Linguistics

لغويات النص

خلفية: Back ground:

الأمر كما أشار هويى Hoey (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤): أن ثمة اتجاهًا إلى إيجاد فارق واضح وسريع بين الخطاب (المنطوق) وبين النص (المكتوب). وينعكس هذا حتى فى ثنائية التسمية بالنسبة إلى النظامين، فنحن ندرس تحليلات الخطاب ولكن لغويات النص. وعلى الرغم من أن التمييز بينهما ضرورى للوصول إلى بعض الأغراض نجده أحيانًا يخلط بين أوجه الشبه فى تنظيم الكلمة المنطوقة والمكتوبة. إن الفارق الذى يذكره هويى Hoey قد جاء فى هذا الجزء volume على أساس عملى لا نظرى، وينبغى أن يكون هناك وعى بالخلط بين لغويات النص والخطاب من جهة وبين تحليل التخاطب من جهة أخرى.

إن تأكيد اللغويات الحديثة فى بواكير نشأتها على استكشاف الوحدات الصغرى ووصفها بالنسبة لكل مستوى من مستويات الصوت والمبنى الصرفى والعلاقة النحوية والدلالة السيمانتيكية لم يكن لها أى استعداد لدراسة قطع مطولة من مكونات النصوص. بل إنه من الممكن أن يقال إن عزل مكونات

صغرى يصرف الاهتمام عن الارتباطات المهمة التى توحِّد النص (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢١). ومع أن زيليج هاريس (١٩٥٢) كان قد اقترح تحليل مجموع الخطاب والتخاطب بحسب قواعد توزيعية (انظر تحليلات الخطاب والتخاطب) مستخدمًا فكرة تحويل transformation بعض فقرات النص فإن هذا الاهتمام الجديد بالنص والخطاب قد اختفى فى أيام تحويل هذه الفكرة إلى موضوع تحويل الجمل الذى جاء به تشومسكى (انظر النحو التحويلى والتوليدى). إن البحوث الأولية فى نظام النص ظلت وصفية فى جوهرها، ومؤسسة فى بنيتها على جهود (بايك ١٩٦٧ وكوتش ١٩٧١ وهيجر ١٩٧٦) مع توسع قليل بحسب المصادفة بإطارها ليشمل استمرارية النصوص أو حدوث المواقف (كوسيريو ١٩٥٥ ـ ١٩٦١ وبايك ١٩٦٧ وهارويج ١٩٦٨ وكوتش ١٩٧١). وقد حدث الاعتداد بالنص بوصفه أطول من الجملة واتجه البحث إلى استكشاف أنواع من بنية النص. وقد نظر إلى ذلك بوصفه عطاء أكثر من أن يكون شيئًا جاء بمشاركة من القارىء ومعتمدًا على الموقف. وننتهى من ذلك إلى إنشاء أعداد مختلفة من الأقسام ومن درجات الإتقان، ولكن مع تصور واضح لكيفية استخدام النصوص فى النشاط الاجتماعى (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١).

وللطريقة الوصفية على أى حال ميل إلى الترويض لأن اللغة تشتمل على كثرة بالغة من التراكيب المشتملة على عناصر كثيرة ومختلفة تصعب الإحاطة بها. ومن العجب أن فكرة التحويل التى فقدها هاريس Harris لصالح تشومسكى Chomsky هى التى سمحت بنشأة فكرة جديدة عن النص شجعت فى عقد السبعينيات على قفز لغويات النص إلى النحو التحويلى، حيث جاءت النظرة إلى المجموعة غير المحددة من الجمل فى اللغة بوصفها صادرة عن مجموعة قليلة من البنيات العميقة، مع إضافة مجموعة من القواعد لتحويل هذه البنيات العميقة إلى بنيات سطحية. لقد خضع الأمر للمناقشة (كانز وفورد ١٩٦٣، وانظر

أيضًا Rhetoric ص ٣٨٣). ويمكن لنص كامل أن يعامل معاملة جملة مفردة بالنظر إلى مواضع الوقف ورؤيتها كما لو كانت مواضع للوصل، كما فى حال (and). إن هذا الاتجاه على أى حال يهمل قاصدًا أن يشير إلى ما يراه القارئ وما يعلمه. أضف إلى ذلك أنه يهمل حقيقة كون دلالات النبر والتنغيم والرتبة فى غضون الجملة تتوقف على تنظيم الجمل الأخرى فى مجرى السياق (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤).

هذا ما لاحظه هايدولف Heidolph (١٩٦٦) من أن ملاحظة المذكور فى مقابل غير المذكور يمكن أن تنضم إلى النحو لتبرر هذه العوامل (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤). ويسجل آيسنبرج Isen berg (١٩٦٨ ـ ١٩٧١) عوامل يمكن علاجها بدون جملة واحدة، مثل الضمير والأداة وسياق الزمن، ويضيف ملاحظات ينوى بها العثور على مستوى عبارات اسمية Noun Phrases ... (and) تشير إلى علاقات (coherence) مثل: علة cause وغرض pupose وتخصيص أو تعيين specification ومقاربة مؤقتة temporal proximity (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤). هذا النوع من الجدل أدى إلى نشأة مشروع Konstanz project الذى أنشئ فى جامعة كونستاتز الألمانية بواسطة مجموعة من الباحثين من بينهم: هانسريزر Hannes Rieser وبيتر هارتمان Peter Hartmann ويانوس بيتوفى Janos Petofi وجينس إهوى Jens Ihwe وفولفرام كوك Wolfram Kock. وآخرون حاولوا أن ينشئوا نحوًا ومعجمًا يمكن أن يستعملا فى توليد نص يسمى Brecht text. وجاء ذكر هذا المشروع فى (فاندايك وآل ١٩٧٢). ولقد أبرز هذا المشروع مشكلات أكثر مما جاء بالحلّ (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤) "على الرغم من منظمة من القواعد لم يمكن الوصول إلى مبادئ للحكم على النص نحويًا أو تركيبيًا" ولم يمكن الوصول إلى حل مشكلة الإحالة العامة. وقد اتجه النقد الذى وجهه كومر Ku mmer إلى هذا المشروع (١٩٧٢)

من خلال الإشارة إلى أن توليد النص من المفترض أن يأتى عن طريق الباحثين لا عن طريق النحو (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٥).

وعلى العكس من الطريقة النحوية التى استعملتها مجموعة كونستانز جاء عمل بيتوفى petufi (١٠٧ و١٩٧٤ و١٩٧٨ و١٩٨٠) الذى عنوانه: Text (Test (est (Structure - World Structure Theory) بعوامل تتصل بمستعملى النص أكثر من اتصالها به بوصفه اختراعًا منعزلاً للإنسان كما تتصل بوسائل للتقديم مشتقة من المنطق. وهكذا جاء مشروعه شديد التعقيد (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٥ ـ ٢٦).

جاء عرض عناصر النص فى نسخة ١٩٨٠ ليمثل النص من جميع اتجاهاته، وإلى جانب الناحية اللغوية الطبيعية جاء موقف قاعدى مترابط (منتظم ومجرد). ولقد سبقت القواعد واللوغارتمات لبيان هذه الأعمال مثل الصوغ formation والتركيب composition والبناء construction والوصف description والترجمة translation والشرح interpretation. أما إحالة النص إلى موضوعات أو مواقف فى العالم فإن علاج ذلك يأتى بواسطة مكون "الدلالات العالمية" مع افتراض التوافق بين بنية النص وبنية العالم على الأقل.

ومع إبقاء فانديك على التمسك بفكرة نحو النص التى وضعت للحفاظ على ظواهر النص التى لا يمكن لنحو الجملة أن يناسبها تقدم فانديك (١٩٧٢) بفكرة البنية الكبرى macrostructure وهى عبارة عامة عن الموقف المصاحب للنص (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٧ ـ قلرن فانديك ١٩٧٧ الفصل الخامس). وقد استدل فانديك بأن إنشاء نص لابد من أن يبدأ بفكرة رئيسية تتحول بالتدريج إلى معان مفصلة تنمو إلى مستوى معانٍ قطعت إلى تراكيب فى حجم الجمل. وعند الوصول إلى حجم الجملة ينبغى أن تكون هناك أعمال فى الاتجاه الآخر لاسترجاع الفكرة الرئيسية مثل الحذف (استرجاع مباشر للمادة) أو التعميم (بوضع المادة فى صورة أعم) أو البناء (إيجاد مادة جديدة وإدماجها فى بنية أكبر). وهكذا عاد فانديك إلى سيكولوجية المعرفة للوصول إلى نموذج للنص صالح للإجراء. وقد

بحث بالتعاون مع والتر كينتش ما يفعله الناس من أجل اختزال النصوص (قارن كينتش وفانديك ١٩٧٨، وفانديك كينتش ١٩٧٨). إن التخليص النموذجى للنص ينبغى أن يكون مؤسسًا على البنية الكبرى macro structure للنص والبنية الكبرى السابقة الاختزان والمبنية على معرفة الأحداث والمواقف فى العالم الواقعى.

أما دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١) فإنهما ينظران إلى مباشرتهما الخاصة للغويات النص بوصفها نشأت عن آرائهما ويريان أن معظم الدارسين للغويات النص ينبغى أن يلجأوا إلى الإحالة إلى عوارض نوعى البنية (الكبرى والصغرى) بالنسبة لهذه العوارض، وإلى عالم معرفة المتكلمين (انظر التعميم وعلم اللغة النفسى). ويقصد دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص ٣١) بلفظ Procedural Approach مدخلاً إجرائيًا إلى الموضوع يشتمل على وصف استعمال مختلف المستويات. ويعرفان النص (نفس المرجع ص ٣) بأنه حدث اتصالى يخضع لسبعة مستويات نصية هى السبك cohesion والتعليق coherence وكلاهما يرتكز على النص، ثم القصد intentionality والقبول acceptability والمعلومية informativity والموقف situationality والتناص intertextuality وكلها مما يعتمد على مستعمل النص. هذه المستويات السبعة الموصوفة بعد قليل تعمل عمل المبادئ التكوينية التى تحدد وتخلق الاتصال. أضف إلى ذلك ثلاثة مبادئ تنظيمية على الأقل سيأتى وصفها فيما بعد تعمل على بدء الاتصال النصى (انظر Speech Act Theory من أجل الفرق بين المبادئ التكوينية والمبادئ التنظيمية، هذه المبادئ التنظيمية هى الكفاءة efficiency والتأثير effectiveness والمناسبة appropriate ness.

المبادئ التكوينية للاتصال

السبك

Cohesion

إن أهم علم تناول السبك باللغة الإنجليزية هو ما قدمه هاليداى وحسن (١٩٧٦)، ولكن ما قدمه ياكوبسون (١٩٦٠) من تأكيد فكرة التوازى بين

الأصالة Paterning وبين التكرار فى النص (انظر Stylistics) هو أول تطور مفصل لفكرة السبك cohesion (انظر ٢١ w ١٩٨٠ Closs Traugottand Pratt). إن السبك يختص بالطريقة التى تكون بها العناصر اللغوية المتوالية التى يتكون منها النص ذات معان يتصل بعضها ببعض على أساس من القواعد النحوية بطرق أربع (هاليداى ١٩٨٥ الفصل التاسع). تلك الطرق هى: الإحالة والحذف (ويشمل الاستبدال) والأدوات الرابطة والنظم المعجمية.

ويمكن للإحالة أن تكون من نوعين: ١ ـ إحالة إلى خارج النص exophoric لعنصر من عناصر العالم، نحو (انظر إلى هذا). ٢ ـ إحالة إلى عناصر من النص endophoric إما عن طريق cataphora بالإحالة إلى الأمام مثل "فى البيت الذى بناه يعقوب" إذ تشير أداة التعريف إلى عبارة "الذى بناه يعقوب"، أو عن طريق anaphora أى إحالة إلى الخلف كما فى: "بنى يعقوب بيتا وذلك فى مزرعته إذ يشير لفظ ذلك إلى بناء البيت". أو تكون الإحالة إشارة لذات مفردة معهودة فى الموقف homophora مثل "كانت الشمس طالعة" أو "هى أطعمت الهرة". أما وسائل الإحالة فهى الضمائر الشخصية والإشارات التى تحيل بصحبة الضمائر co refere وصيغ المقارنة comparatives التى تدل على التقابل.

ويشير الحذف للإحالة إلى ماض ana phorically كما فى عبارة: "اختر ما شئت" (مع سبق ذكر بعض المعروضات). إن العناصر التى تخلق التواصل بين أجزاء السياق هى عناصر السبك بين أجزاء من النص. وهناك ثلاثة أنواع حسب ما يقوله هاليداى (فى نفس المرجع):

١ ـ التفصيل ilaboration بواسطة الضم apposition إما عن طريق التقابل expository مثل "أو بعبارة أخرى" أو بالتمثيل كما فى "فمثلاً" أو بالإيضاح clarification عن طريق التصويب كما فى or rather "أى على الأصح" أو

بصرف الانتباه distractive كما فى incidentally أى بالصدفة أو التعميم dismissive كما فى "in any case" أو التخصيص particularizing كما فى particularly أوin particular. أو على معنى التكرار resumptive كما فى as I was saying أو معنى الاختصار summative كما فى in short أو عمليًا verifactive كما فى actually.

٢ ـ التشريك، وتحته معان فرعية مثل: الإضافة addition; كما فى and nor والاستدراك adversative كما فى but والاختلاف variation وتحته ثلاثة معان هى: الإبدال replasive كما فى instead و on the contrary والاستثناء subtraction كما فى except والتخيير alternation كما فى alternatively.

٣ ـ التعزيز inhancement ومن فروعه الظرفية المكانية أو الزمانية مثل: here أو before والطريقة manner كما فى الإحالة reference والتعليل causal conditional; كما فى therefore أو matter كما فى in this respect.

ويسمى دى بوجراند ودريسلر (١٩٩١ ص٧١ ـ ٧٣) هذه العلاقات junctions كما يسميان طرق الإشارة بها junctive expressions ويفرقون من هذه التعبيرات بين أربعة أنواع رئيسية:

١ ـ اتصال junction وهى علاقة إضافية تجمع بين أمور ذات حالة مشتركة مثل أن يكون الأمران كلاهما صحيحين فى عالم النص (انظر بعد ذلك مبدأ التعليق coherence) ويشار إلى العلاقة بينهما بلفظ and و moreover و also و in addition و desides و furthermore.

٢ ـ انفصال disjunction وهى علاقة تربط بين أشياء ذات وضع اختيارى alternative مثل شيئين لا يشتركان فى الصواب فى عالم النص، ويشار إليهما بألفاظ or و either / Or و whether or not.

٣ ـ مصادر الربط conjunctions وهى علاقة تجمع بين أمور ذات وضع مشترك. ولكنها تبدو متعارضة أو متباينة فى عالم النص مثل علة cause ومعها أثر غير متوقع منها. ويشار إليها بألفاظ منها: but و however و yet و never the less.

٤ ـ التبعية subordination وهى تربط بين أشياء يتوقف وضع أحدها على وضع الآخر (مثل اعتماد وقوع الحدث على حدث سابق أو اعتماد وقوع المعلول على العلة). والألفاظ المعبرة عن ذلك هى: since و as و thus و while و whenever و after و before و next و then و on the ground that و if و during.

ويأتى السبك المعجمى lexical cohesion من خلال التكرار repetition والترادف synonymy والتوارد collocation على حين تميل الإحالة reference والحذف ellipsis والترابط conjunction إلى ربط عبارات متقاربة الموقع فى سياق النص. ويبدو من السبك المعجمى أنه تجمع بين أجزاء أكبر من ذلك فى النص (ولكن انظر إلى نماذج المناقشة فى موضوع التعليق coherence بعد قليل).

يعد يوجين وينتر Eugine Winter أحد الكتاب المفكرين ذوى العطاء Prolific فى موضوع العلاقات بين عبارات النص (هويى hoey ١٩٨٣ ص ١٧). ويمكن لعمله فى دراسة العلاقات بين العبارات Clauses فى معظمه أن يقسم إلى قسمين رئيسيين : فهو من جهة اهتمام بوضع الجملة فى محيط ما يتصل بها من جمل النص ويظهر كيف يمكن لما لها من البنية النحوية والمعنى أن يتم شرحها لو أن الموقع الأكبر كان موضع اختبار. ومن جهة أخرى يبدو اهتمامه بأن يكشف عن تنظيم العبارات فى مجمل السياق دون التركيز فيه على أى جملة بخصوصها.

وفى مجرى آخر مشابه يفرق دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص٧٩) بين المدى القصير والمدى الطويل الممتد من مسافات سطح بنية النص. وأول هذين المديين ينشئ نماذج من الاعتمادات النحوية التى تجمع بين مكونات السياق، على حين يخلق ثانيهما إعادة استعمال العناصر أو النماذج السابقة (انظر أيضًا فانديك ١٩٧٧ ص٩٣).

أضف إلى ذلك كما يشير هويى (١٩٨٣) أن تعريف وينتر (١٩٧١) بالعلاقات الوثيقة بين العبارات بوصفها إجراءات معرفية يمكن بها شرح معنى الجملة أو مجموعة الجمل فى النص فى ضوء ما يحيط به من جملة أو عدد من الجملّ ودلالة على أن حسن السبك النحوى غير المشار إليها لا تعد إحدى العلاقات.

إن معظم الذين يكتبون عن السبك (انظر مثلا هاليداى وحسن ١٩٧٦) يؤكدون أنه من صنع القارئ على أساس من طرق التأشير. ومع ذلك فإنه بالنظر إلى قوة التأكيد التى استعملها وينتر وكذلك هويى بالنسبة لتأكيدهما على النماذج الكبرى من البنيات العامة نجد القارئ يستطيع بناءها جزئيًا فقط على أساس من طرق السبك لأن عملهما تجرى مناقشته فى الكلام عن التعليق بعد قليل.

إن دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص٨٠) يضمان ما يلى إلى طرق السبك الطويلة المدى (قارن ما ضمه هاليداى إلى طرق السبك المعجمى التى سبق ذكرها):

التكرار recurrence إعادة ذكر المادة.

التكرار الجزئى partial recurrence استعمالات مختلفة لعناصر اللغة المستعملة ذاتها (أصول الكلمات).

التوازى parallelism إعادة استعمال البنيات مشتملة على مادة مختلفة.

التفسير paraphrase مساواة فكرية تقريبية بين مادة مختلفة فى الظاهر.

الشكليات proforms عناصر مختلفة فارغة تستعمل للمحافظة على مستوى عناصر شائعة أكثر امتلاء وإعادة استعمال بنيات نحوية أساسية.

الحذف ellipsis إباحة إزالة بعض المكونات النبيوية على شرط إعادة المحذوف من نقطة ما فى النص.

التعليق

Coherence

يتصل التعليق بالطريقة التى يحدث بها الوصول إلى ما يتم به عالم النص، وهو مجموع الأشياء التى يدور حولها النص. ويفترض فى عالم النص أن يكون مكونًا من أفكار وعلامات، وتعرف هذه الأفكار والعلامات فى جملتها بأنها صورة معرفية (أو محتوى معرفى) يمكن أن يستعاد أو ينشط فى الذهن فى وحدة أو مناسبة أو علاقات تمثل اتصالاً بين الأفكار التى تظهر معا فى عالم نص ما (انظر دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٤). ويمكن لهذه العلامات الأكثر شهرة أن تصنف فى مجموعتين فكريتين رئيسيتين هما الغائية والتوقيت.

١ ـ **الغائية**: أما مجموعة العلاقات الغائية فتتصل بالطرق التى يمكن من خلالها لموقف أو حدث ما أن يؤثر فى موقف أو حدث آخر، وتقع هذه العلاقات الفرعية فى أربعة أنواع:

* **العلة**: cause "قذف زيد الكرة بشدة حتى طارت فوق السور" هنا نرى قذف الكرة بشدة يؤدى إلى شروط ضرورية من أجل طيران الكرة فوق السور.

* **التمكين**: enablement "استلقت الهرة بهدوء فى الشمس فزحف الطفل

إليها بخفة وشد ذيلها" هنا توجد علاقة أضعف مما سبق بين حدث استلقاء الهرة وحدث زحف الطفل وجذب الذيل، لأن الحدث الأول وإن كان كافيًا sufficient لا يعد شرطًا ضروريًا necessary لإيقاع الحدث الثانى.

* السبب: reason "من أجل انشغالى بكتابة نحو النص طول اليوم أستحق أن استريح هذا المساء". فى هذه الحالة يبدو الحدث الثانى استجابة عقلية للحدث الأول ولكنه ليس مسببًا له أو داعيًا إليه بل إنه ممكن بسببه.

* الغرض: purpose "أنت تقرأ هذا لمعرفة لغويات النص". مع أننا فى هذه الحالة إذ نرى الحدث الأول يجعل الثانى ممكنًا نجد مساحة إضافية تجعل الحدث الثانى نتيجة مقصودة للأول.

٢ ـ التوقيت: time هذه العلاقة تختص بترتيب الأحداث فى مجرى الزمن. فأما بالنسبة للعلة والتمكين والسبب فثمة حدث سابق يقف علة أو داعيًا للتمكين أو سببًا لحدث آخر يقع بعده، فيمكن أن نقول إن التقدم فى الزمن forward directionality جعل الحدث الأول مؤثرًا فى هذه العلاقات الثلاث. أما فى حالة علاقة الغرض فإن لها تأثيرًا رجعيًا backward directionality من حيث نرى حدثًا متأخرًا يمثل غرضًا مخططًا لحدث متقدم.

يقسم وينتر Winter من جهته العلاقات التركيبية clause relations إلى كبرى (ويقصد بها التتابع المنطقى logical sequence، وصغرى والمقصود بها علاقات التناسب matching حيث تكون علاقات التوقيت هى الشكل الأساسى (انظر: Hoey ١٩ ـ ١٩٨٣). وكلا هذين النوعين يخضع على أى حال لعلاقة أساسية أكبر هى علاقة الموقف التى تمثل ناحيتين هما إدراك العالم knowlng والتفكير thinking. حقًا إن كل العلاقات يمكن اختصارها إلى هذين العنصرين الأساسيين (نفس المرجع ـ ٢٠)، أما دى بوجراند ودريسلر فلا يقدمان بصراحة مثل هذا العرض القابل للاختصار.

١ ـ علاقات التتابع المنطقى logical sequence relations وهى علاقات بين الأحداث المتوالية سواء كانت واقعة أم ممكنة الوقوع، وهى:

* الشرط ـ النتيجة condition - consequence (وتتلخص فى إذا.... إذن).

* الواسطة ـ الإنجاز instrument - achievement (وتتلخص بواسطة باء الجر... ومدخولها).

* العلة والمعلول cause - consequence (وتتلخص فى لأن... ف...).

٢ ـ أما علاقات التناسب matching relations فإحداها علاقة تقابل contrast (يعبر عنها بعبارة: على أى حال...) والأخرى علاقة تلاق compatibility (ويعبر عنها بكلمة: كذلك...).

إن أهم ناحية فى عمل وينتر Winter (وهى توحى بقوة أن عمله هو وهويى Hoey) ينبغى أن ينظر إليه بوصفه مساهمة فى فهم المقصود بالتعليق أكثر من فهم المقصود بالسبك، هى الإصرار على أن هذه العلاقة الوثيقة لا يمكن ببساطة أن تفهم من علامة نصية سطحية. وينبغى لهذا طبعًا أن يكون واضحًا لأى شخص يسعى إلى القوائم المختلفة التى يضعها القراء للإشارة إلى الوسائل لأن الشىء نفسه غالبًا لا يوضع فى صورة إشارة إلى علاقات متعددة (انظر مثلاً هاليداى وحسن ١٩٧٠ ص٢٤٢ ـ ٢٤٣).

على أى حال نرى أن الذى يؤكده ونترWinter بالضرورة هو أن الألفاظ المعجمية الأخرى بالإضافة إلى عبارات الاتصال تعيد القارئ إلى اتخاذ قرار بالنسبة إلى أى علاقة سبق منحها علامات تعبيرية للاتصال. إنه يقسم العبارات الاتصالية الأصلية إلى مجموعتين تقليديتين إحدهما فرعية Subordinate تسمى مجموعة المفردات الأولى والأخرى للملحقات Conjuncts وتسمى مجموعة المفردات الثانية، ولكنه يضيف إلى هذه طائفة الإشارات المعجمية lexical

signals ويسميها مـجموعة الإشارات الثالثة. إن نفس العلاقة يمكن أن يشار إليها بلفظ ينتمى إلى أية واحدة من الـمجموعات الثلاث. فعلاقة الأداة ـ النتيجة instrument - achievement يوصل إليها بأى واحدة من العبارات الشارحة الثلاث التالية :

* "بدعوة العلماء والفَنِّيين إلى تأييد حزبه استولى مستر ويلسون على كثير من أصوات الطبقة الوسطى".

* "مستر ويلسون دعا العلماء والفنيين إلى تأييد حزبه وبهذا فاز بكثير من أصوات الطبقة الوسطى".

* "إن دعوة مستر ويلسون العلماء والفنيين إلى تأييد حزبه كانت أداة لكسب تأييد الطبقة الوسطى".

فالعلاقة فى المثال الأول عبر عنها بألفاظ المجموعة الأولى، والعلاقة فى المثال الثانى بألفاظ من الثانية، والثالث من الثالثة. إن مفردات الـمجموعة الثالثة لا تقتصر على الـمساعدة فى الإشارة إلى العلاقة القائمة بين الـجمل فى فقرة ما، بل تعين على الإشارة إلى النظام فى عبارات هى أطول ما فى مجموعات الخطاب ويلفت ونترWinter الانتباه إلى مثال لما يسميه هو "ما وراء التركيب" وهى إشارات معجمية تؤدى مهمة أكبر. ويـهتم عمل هويى أكبر اهتمام بما ذكرنا مما وراء اللغة فيما يتعلق بنظام النص. فهو يناقش نماذج التناسب والنماذج العامة والـخاصة، وعلى وجه الخصوص نماذج حـل المشكلات ويقصد مجموعات العلاقات المنظمة للخطاب.

إن هويى و ونتر Hoey و Winter كليهما يعرضان طريقة التكرار الأسلوبية repetition (انظر أيضًا علم الأسلوب). فكلاهما يربط بين الـجمل بالتكرار ويسهم بالتكرار فى شرح الـجملة والنص؛ لأنه إذا أشتملت جـملتان على أمر

مشترك فإن الذى يلحقه التغيير هو الذى يستحق انتباه القارئ، على حين تؤدى المادة المكررة دور الإطار للمادة الجديدة. إن التكرار يدل على علاقة التناسب وعلاقة العموم والـخصوص. وربما بدأ التكرار فى صورة بساطة العنصر المعجمى الذى سبق ظهوره فى الـخطاب دون وجود اختيار أكثر مما يصلح للإيضاح بالوسائل النحوية، مثل إنـهم يرقصون They dance وهى ترقص She dances وربما تبدو فى شكل تكرار معقد يبدو فيه الـمبنى الصرفى مشتركًا بين أقسام مـختلفة من الألفاظ مثل: إنـها رقصت She danced ـ الرقص the dance ـ الأحذية الراقصة The dancing shoes

ويمكن للتكرار على أى حال أن يبدو فى صورة استبدال substitution فى نظام هويى Hoey (فى مقابل ما وضعه هاليداى وحسن (١٩٧٦) من اعتبار الاستبدال قسمًا فرعيًا من أقسام الحذف ellipsis (انظر السابق ص ٤٦٣).

إن العلامات التى يستعملها هويى Hoey من هـذا النـوع من التـكرار هى نفسها التى يستعملها هاليداى وحسن (١٩٧٦) (انظر السابق ص ٤ / ٤٦٣)، وأخيرًا يعد التفسير Paraphrase من قبيل التكرار وإن كان التفسير أوضح علامة لعلاقة التناسب matching relation (هويى Hoey١٩٨٣ ص ١١٣).

إن التناسب هو ما يحدث عند مقارنة اثنين من أجزاء الخطاب من جهة تفاصيلهما ففى هذه الحالة تسمى العلامة الناتجة باللقاء compatibility التناسبى. وأحيانًا من جهة الاختلاف، وفى هذه الحالة تسمى العلاقة الناتجة بالتقابل contrast التناسبى.

إن الأنواع الوحيدة من النصوص التى تنتظم أحيانًا فى نوع من علاقات التناسب هى الرسائل والقصائد، وتستعمل علاقة التناسب عادة بإحدى علاقات العموم والـخصوص. ذلك لأن من المعتاد حدوث هذا عندما تبدأ قطع من

الـمعلومات فى التعميم الذى يشير إلى التناسب. فأما فى حالة الرسائل فإن اهتمام القارئ بخلفيته الـمعلومية ربما يؤدى إلى التعميم، وأما فى حالة الشعر فإن تقديم ذلك ربما يكون جزءًا من عملية الشرح.

ويناقش هويى Hoey (الفقرة السابعة من نفس الـمرجع) نوعين من علاقة عام ـ خاص general - particular ـ أى مثالاً للتعميم generalization وعلاقة الإجمال. بالتفصيل preview - detail وكلتاهما عند وجودهما مع علاقة التناسب matching ربما تنظمان نصًا كاملاً أو فقرات طويلة من الـمجموع وهو يعرض كيف تبدو جملتان من جمل التناسب (نفس المرجع ص١١٣).

٢ ـ على سبيل المثال لا تشتمل الخريطة إلا على النواحى التى تهم الشخص الذى يستعملها.

٣ ـ وكذلك يكون التخطيط المعمارى منحصرًا فى عرض النواحى المهمة بالنسبة للشخص الذى ينوى تسخير مقاول للبناء.

وسيكون لهاتين مقدمة عامة يصلحان من أجلها أن يكونا نموذجين.

١ ـ من المهم أن نلاحظ أن النماذج الأيقونية يمكن أيضًا أن تمثل بعض الملامح الـخاصة بجزء من العالـم الذى تـمثله هـذه النماذج. (الـجمل مأخوذة من شواهد ألان جنكن أمثلة تـحت الـمجهر. Computer management إبريل ١٩٧١ ـ ٣٨).

أما من حيث علاقة من نوع الإجمال والتفصيل preview - detail فإن عضو التفصيل من العلاقة يقدم معلومات عن عضو الإجمال أو عن جزء منه. ويمكن للتفصيل أن يدخل فى علاقة تناسب. وأدق عضو للتفصيل هو التعريف. وتبدو الجملة الأولى فى المثال التالى فى وضع الإجمال وتبدو الثانية والثالثة فى وضع تفاصيل تناسبية.

(١) إن الكلمة الدنماركية Higgelig مثيرة للانتباه، ولكنها صعبة بالنسبة

للسيطرة عليها من قبل المتعلمين الأجانب للغة. (٢) فهى من جهة يمكن استعمالها فى مواقف يحس المرء فيها بالراحة فى مكان دافئ أنيق snug مع الإحساس بأنه فى داره. (٣) ومن جهة أخرى يمكن استعمالها فى الكلام عن شخص يجعل المرء يحس بأنه مستريح وفى داره.

إن النموذج الصادق للخطاب على أى حال هو: المشكلة.. نموذج الحل the problem solution pattern، ويمكن التعامل مع عدد من النصوص بوصفها مطابقة لنموذج: موقف situation ـ مشكلة problem ـ استجابة result ـ Evaluation ـ response ـ تقويم.. نتيجة، مع العود إلى استجابة. أى أن الاستجابة ربما تكون سببًا فى مشكلة جديدة تتطلب استجابة جديدة. إن هويى Hoey يقدم مثالاً لذلك فى الشكل الإيضاحى الأول المنقول عن (Hoey ١٩٨٣ ـ ٥٣). النموذج يمكن أن يتضح بواسطة الاستفهام فبعد كل من الجمل فى النموذج رقم ١ قد يسأل القارئ سؤالاً مثل: ما الذى حدث إذن؟ وماذا استطعت أن تفعل عند ذلك؟ أو يمكن أن يكشف عن النموذج قد يكون بواسطة التفسير مع استعمال إشارات معجمية (نفس المرجع المذكور).

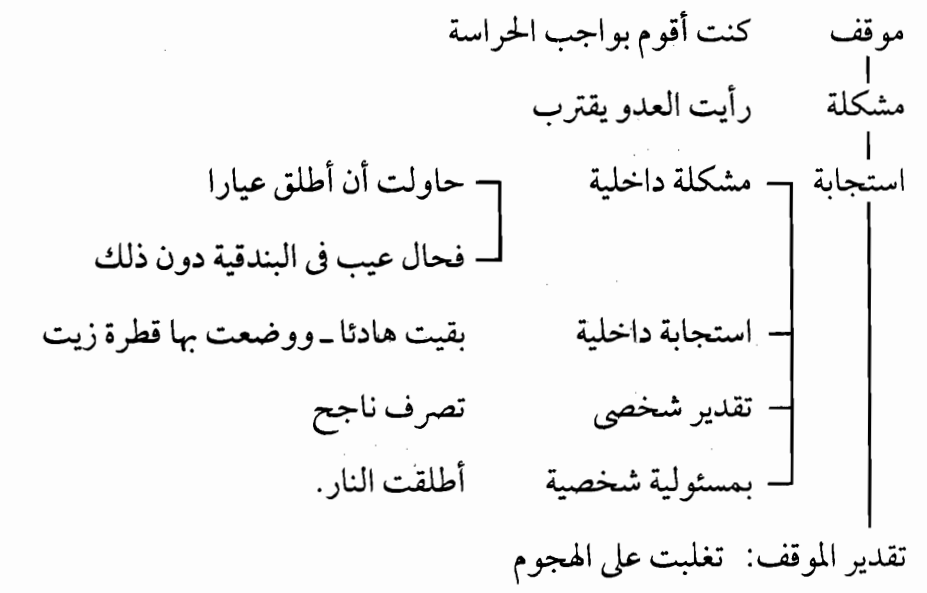

إن الوسيلة التى تم التغلب بها على الـهجوم كانت هى فتح النار، وكانت علة فتح النار هى رؤية العدو يتقدم، أما مناسبة رؤية العدو وهو يتقدم فهى القيام بـواجب الـحراسة، إن الإشـارة الـمعجمية الـمستعملة فى التفسير يمـكن أن تكون الـمصطلحات فى النموذج نفسه (نفس الـمرجع). فلقـد كـان الـموقف قيام الـحارس بـواجب الـحراسة عنـدما رأى العـدو يتقـدم فحلت هذه الـمشكلة بفتح النار. فهـذا الـموقف أدى إلى النتيجة الـمطلوبة وهى التغلب على الـهجوم.

ويستخلص هويى (ص٥٧ ـ ٥٨) أربع مـجموعات من حالات التخطيط تبدو منها العلاقة بين عنصرى الـمشكلة.. الـحل والعلاقة بين التراكيب:

١ ـ سوف نفترض وجود جزأين من خطاب "أ" و"ب" حيث يقول الغرض بالنسبة إلى "أ" إن العضو الأول قد وضع وضعًا مستقلاً منذ البداية وإن الثانى يشتمل على دور نائب ويقوم بدور الاستجابة.

٢ ـ سنفترض أن هذه أجزاء من الخطاب (الأول والثانى والثالث) يقع الأول والثانى منها فى علاقة أداة.. إنجاز أو أداة.. غرض إذ يكون الغرض مساويًا تقريبًا لعلاقة أمل.. إنجاز التى لم يكن العضو الأول منها منظورًا إليه بوصفه مشكلة مستقلة.

وبالنظر إلى هذه الظروف نجد أنه لو كان الثانى فى وضع نائب والثالث بمنع الرجوع.. والتجنبات.. وتـجنبات الضرر أو طلب مساعدة فى الـمنع إلخ فإن بعض النواحى الضرورية تكون مشكلة والثانى استجابة.

٣ ـ سنفـرض أن جزأيـن فـى خطـاب كانـا فـى علاقـة علـة.. نتيجـة وأن أولهما لـم ينشـأ نشـأة مستقـلة بوصـفـه مشكـلة فـإذا اشتمـل الثـانى عـلى وضع نائـب وكـان هـذا الثانـى أيضًا مانعًا للرجـوع والتجنبـات أو تـجنـب الـضرر

لبعض النواحى الضرورية فى الأول فإن الأول مشكلة والثانى استجابة cause .- consequences

٤ ـ سنفترض نفس الافتراض من أجل شروط تخطيط الثالث. فلو أن الثانى اشتمل على وضع نائب واستطاع أيضًا أن يلحق به المركب الثالث.. غرض الذى يرفض فهما عاميًا لما يدل عليه الثانى بالإضافة إلى ثالوث حديث التكوين بالمطابقة لشروط التخطيط رقم ٢ فإن الأول عندئذ يكون مشكلة والثانى استجابة.

إن مقاربتى هويى و وينتر تختلفان عن مقاربة دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١) وفاندايك وكيتش (١٩٧٨) ببقائهما إلى حد ما على خدمة الخطاب (ولو أنهما يشيران إلى سطح أدوار عميقة مثل "نائب" agent كما كان فى المقاربة السابقة. وفى عدم توكيد الإجراءات السيكولوجية للفهم وإدراك البنيات الكبرى).

بالعكس، انصب التوكيد على الطرق التى يكون فيها سطح الخطاب (غير منطو بطبعه على ضرورة أن يكون مقابلاً للأعماق المختفية) مشتملاً على أدلة كافية تقود القارئ أو المستمع إلى إدراك تنظيم الخطاب إدراكًا دقيقًا.

إن لهذا ميزة تتمثل فى أن الظواهر الموصوفة يمكن إدراكها مباشرة إلى حد ما على حين نرى الإحالة إلى الأفكار والعلاقات فى عالم النص وإلى التنظيمات تظل ذات طبيعة افتراضية. ومع ذلك تظل المقاربتان فى أحسن حال بوصفهما بنيتين سطحيتين متكاملتين وهبهما اللغويون عملاً تفصيليًا فيما حول السبك.

Cohesion والتعليق coherence ومع ذلك قد يكون من التفكير السطحى أن نظن أن الإجراءات الفكرية للقراء والمعارف المتصلة بأمور مختلفة فى العالم غير ذات أهمية فى فهم النص. بل يمكن أن يكون مما يثير النقاش أن الفائدة

العظيمة لمشكلة حل النماذج فى مجال تحليل النص هى أنها تتناسب عن قرب مع إجراءات الكاتب والقارئ الفكرية التى يشير إليها دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١) فى الكلام عن الشروط الخمسة الباقية للنصية.

القصد: Intentionality

يتصل القصد بنية منشئ النص أن ينتج نصًا ذا سبك وتعليق ليصل إلى ما خطط للوصول إليه. ويستند منشئو النص ومستقبلوه إلى مبدأ جريس Grice للتعاون فى سبيل الخطاب، ولكن علم لغة النص يضيف إلى تضمين المحادثة أن مستعملى اللغة يهدفون إلى غرض (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ص١٥٣ و ٣ ـ ١٥٢). والتخطيط للخطاب يقتضى حلاً مشتركًا للمشاكل problem solving من جانبى المنشئ والمستقبل كليهما إلا أن الاتصال الناجح يتطلب تطلبًا واضحًا القدرة على تتبع أو استنتاج الأغراض على أساس ما يقول كلاهما. وينبغى لمنتجى النص على أسس الشعار نفسه أن يكونا قادرين على توقع استجابات المستقبلين له لحظة استقباله والبناء على نموذج داخلى من قبل المستقبلين ومعتقداتهم ومعلوماتهم.

القبول: Acceptability

القبول مما يتصل برغبة المستقبل أن يكون النص جيد السبك والتعليق وعلاقته به (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ٧). ويمثل هذا الموقف استجابة لبعض العوامل مثل نوع النص والموقف الاجتماعى أو الثقافى والمرغبات فى بلوغ الأغراض. وسيتحمل المستقبل أشياء مثل سوء المطلع وهو مما يؤثر فى التعليق والسبك كما يستعمل الاستنتاج المبنى على معرفته الشخصية من أجل ضم عالم النص بعضه إلى بعض.

المعلوماتية: Informativity

تتعلق المعلوماتية بالمدى الذى تصل إليه الأحداث المعبر عنها فى النص الحاضر فى مقابل غير المتوقع، أو المعروف فى مقابل غير المعروف

أو غير المؤكد (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ٨ ـ ٩) ومن هنا تأتى الحاجة إلى الإحالة إلى فكرة الاحتمال prob ab ili ty (نفس المرجع ص١٤)، وسيكون الأكثر احتمالاً فى أى موقف بعينه أكثر توقعًا من الأقل احتمالاً. وعندما يحدث شىء لم يكن متوقعًا (نفس المرجع ص١٤٤) سيكون على مستقبل النص أن يقوم ببحث عن الدافع motivation search (حالة خاصة من حالات حل المشكلات) لمعرفة ما تدل عليه هذه الأحداث، ولماذا تم اختيارها وكيف يمكن أن تحدث مرة أخرى مع تحقق الاستمرار الذى يعتبر أساسًا للاتصال.

وإذا لم يأت المستقبل بأى حل فسوف يبدو النص فى صورة كلام فارغ. إن توقع مستقبل النص لما سوف يظهر فى النص يؤثر بقوة فى إدراكه لنوع النص الذى أمامه الآن، فالذى لا يتوقع فى تقرير فنى قد يكون أقل قدرًا من عدم التوقع الحادث فى قصيدة شعرية. ومما يثير الانتباه أن نلاحظ أن من يصادفون كلامًا فارغًا سيتطيعون فى العادة أن بروا له معنى إذا قيل لهم إن النص قصيدة.

رعاية الموقف: Situationality

لرعاية الموقف صلة بالعوامل التى تجعل النص مناسبًا للموقف السائد عند استعماله (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ٩) مرة أخرى نقرر أن مستقبل النص سيحاول جاهدًا كما ذكرنا أن يحل أية مشكلة ناشئة عن حدوث أمور من الواضح أنها غير ذات صلة بالنص (أى أن مستقبل النص سيشغل نفسه بحل المشكلات ليجعل هذه الأمور ذات صلة بالنص).

التناص: Intertextuality

يتصل التناص بالطريقة التى يتوقف عليها استعمال نص ما على المعرفة بنصوص أخرى. فمثلاً يتوقف معنى علامة مرور تدعو إلى استئناف السير العادى على أساس ما سبقها من نصوص تطلب من السائق أن يبطئ السير.

فاشتراك النصوص فى اعتماد بعضها على بعض فى ضوء مبدأ التناص هو سبب لتفصيل أنواع النصوص، وهى مجموعات من النصوص تعرض خصائص نوعية ونماذج. إن السخرية بواسطة المحاكاة parodies والعُروض النقدية والتقارير والاستجابات لمناقشات الآخرين هى أساسًا وبوضوح معتمدة على التناص. وفى حالات أخرى نجد أنفسنا أقل إدراكًا لقيمة التناص، فعندما نقرأ قصة نجد أنها تبدو كأنها نص مستقل. ومع ذلك نعتمد على تقاليد كتابة النصوص، ونحن نكشف عن معرفتنا بها تتحقق به صفة القصة عند قراءتها.

المبادئ التنظيمية للاتصال النصى

الكفاءة: Efficiency

تتوقف الكفاءة على استعمال النص فى الاتصال بأقل قدر من الجهد بواسطة المساهمة، أى أنها مشاركة فى حالة إجرائية... أى بإجراء عمليات بواسطة حَمْلِ حِمْلٍ خفيف على الانتباه وبلوغ الغاية (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٣٤).

التأثير: Effectiveness

يتوقف التأثير على أن يترك النص انطباعًا قويًا وعلى إيجاد ظروف مناسبة للوصول إلى غرض فيظهر عمقًا إجرائيًا بمعنى الاستعمال اللغوى لوسائل الانتباه والوصول إلى مادة مأخوذة من عرض الأداء الواضح (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٣٤).

المناسبة: Appropriateness

يقصد بالمناسبة الاتفاق بين تكوين النص وبين الطرق التى تتم بها المحافظة على مستوى النصية. إنها تحدد العلاقة بين الظرف القائم ومستويات النصية، بحيث يكون هناك اعتماد على مستويات النصية مع اعتبار سهولة المشاركة فى الإجراء (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٣٤). إنها تتوسط بين

الكفاءة والتأثير. اللذين يبدو فى نفس المرجع أنهما يعملان فى اتجاهين متعارضين. ذلك أن اللغة البسيطة والمحتوى المبتذل trite من السهل أن يوجدا ويستقبلا ولكنهما يسببان مللا ويخلفان وراءهما أقل أثر. أما اللغة الخلاقة والمحتوى الغريب (effectiveness) فهما بالعكس يمكن أن يوجدا تأثيرًا قويًا ولكنهما يصبحان على قدر من الصعوبة فى حال الإنتاج والإدراك:

الطبع: Naturalness

من السهل فى مجال لغة النص أن نلاحظ الصلة بين الفقرات فى الحدود الفاصلة بين الجمل، كما نلاحظ أن هذه الصلة تهيئ نماذج كبرى من تنظيم النصوص. أضف إلى ذلك على أى حال إن الإحالة إلى نص يحيط بجملة ما ربما توحى بأن هذا النص يلقى ظلاً على طبيعة naturalness هذه الجملة.

إن مصطلح الطبع naturalness قد وضعه سنكلير Sinclair للدلالة على فكرة جَوْدة بناء الجمل فى النص (١٩٨٤ ص٢٠٣)، وهو فى مقابل ما يفهم عادة بأنه حسن صياغة الجملة وهو ما ينسب إليها عادة عند انعزالها. يقول سنكلير Sinclair: إن كثيرًا من الجمل الحسنة الصياغة لا تبدو عليها صفة الطبع فى نظر أحد المتكلمين باللغة وأنها مادامت تبدو غريبة على رغم جودة تركيبها فإنها تعد مخالفة للقيود التى لا تحتسب بين شروط جودة بناء الجملة (نفس المرجع)، حتى إن جودة البناء ومفهوم الطبع يعدان من المتغيرات المختلفة. إن بعض محددات الوفاء بشروط الطبع توجد فى الخطاب المحيط بالجملة، على حين توجد شروط بناء الجملة فى داخل الجملة ذاتها. ومن هنا تصبح عبارة مثل: "إذا شئت" غير مصوغة بالشروط النحوية التقليدية، ولكنها استجابة طبيعية natural لنوع من الرجاء. إنها تشتمل على ما يسميه سنكلير Sinclair محدد المدى range finder للدلالة على أن عنصرًا من معية النص co - text (أى مصاحب النص) أو من الموقف الذى جرى فيه استعمال النص context سيجعل

من غير المشكل إدراك إن العنصر المتسوب إلى النص فى هذه الحالة هو الرجاء السابق. إن الدرجة التى نعتد بها بحسب طبعها naturalness بما سواها من النص أو على الموقف تسمى الإفراد isolation وهى إحدى ثلاثة معايير parameters يمكن أن يعبر بحسبها عن طبيعة naturalness الجملة. ويعتمد الإفراد نفسه على الفضلات allowances التى تسمى بذلك لأنها من عوارض الجملة على الرغم من أنها تنسب إلى بقية النص text أو يعتمد على الموقف context من أجل تحديدها لا تأثير لها فى جودة بناء الجملة. من هذه الفضلات بعض الضمائر كالتى نراها أثقل سوادًا من حروف كتابة الجملة: I wouldn't have bought **it** if **he** hadn't been **there**

(نفس المرجع ص٢٠٤). هذه الفضلات فى بنية الجملة لا تدخل العيب على صوغها ولكنها نشير إلى استقلالها عما يحيط بها من خطاب. وهذا هو موضع توقع اكتشاف مراجع هذه الفضلات أى ما تشير إليه .It,, he, there

وفى مقابل ذلك تأتى جملة: prince Charles is now a husband حسنة الصوغ بحسب الطرق النحوية التقليدية ولكنها ليست جملة طبيعية natural لأن ثمة تعارضا فى الأساس بين التوقعات المتبادلة وبين البنية المساوية equative بسبب أداة التنكير وما بعدها من لفظ husband. إن الكلمات الدالة على المهنية مثل (sailor) لا تسبب مثل هذا التعارض، ولكن الجملة تتعارض مع المعيار الثانى الذى تصاغ به الجمل الطبيعية natural وهو ميعار الاصطلاحية ـ .idiomaticity

لو أن لفظ husband تقدمه لفظ good مثلاً لأصبحت الجملة طبيعية أكثر مما بدت، والعنصر الذى له هذا الأثر على مدخوله يسمى دعامة supporter وهو كون العنصر اللغوى يتطلب الورود collocation بصحبة يكون عنصر الحياد neutrality قد تحقق. وهذا معيار parameter آخر فى الكلام عن الطبع naturalness. وتؤثر الدعائم supporters المذكورة وهى الحياد neutrality

والإفراد isolation والاصطلاحية (أى دلالة المصطلح naturalness) تأثيرًا اصطلاحيًا آخر كما نرى مثلاً فى I am trying to rack my brains (١٩٨٤ ص ٢٠). إن ضعف توقع التوارد بين trying وبين rack my brains يسهم إلى حد كبير فى إيجاد درجة منخفضة من المستوى الاصطلاحى وما يعرض له من عدم الطبع.

ويرجو سنكلير Sinclair أن تؤدى دراسة أوسع لمدى النص إلى الوصول إلى مستويات مضبوطة لطبيعة الجملة (نفس المرجع ص ٢١٠).

إن دراسة الفضلات ستؤدى إلى تحديد بنية نصية مجردة لأى جملة، فدراسة محددات المدى range finders ستؤدى إلى ما يلى:

١ ـ الكشف عن كيفية إدخال كل جملة فى بناء النص.

٢ ـ الكشف عن مدى الظواهر الفردية individual feataures.

أما عن الدعائم supporters فإن دراستها ستكشف الكثير من الحلول لغموض النص وغلى تعيين:

١ ـ عناصر مركبات مثل العبارات phrases.

٢ ـ المدى المسموح به للاختلاف.

إن الدرجات الثلاث من الحياد والإفراد والاصطلاحية ستسمح للجمل أن يقارن بعضها مع بعض وربما تؤدى إلى نشأة بلاغة rhetoric حديثة على مستوى الجملة.

وهكذا يبدو أنه بينما وجدنا أن المدخل النحوى قليل العون فى مجال لغة النص نرى أن دراسة أخرى فى مجال الطبع يمكن أن تضيف أضواء لا على طبيعة النص فقط بل إلى المجال التقليدى للنحو وهو الجملة.

نظرية سيميوطيقية للنصوص

Floyd Merrel

"لن يكون لكتابى مقدمة أقدمه بها لأى شخص. فمثله كمثل أى مؤلف رياضى لا يقترح أفكارًا معينة أو أسبابًا محددة لاعتقاد صدقها، لكن القارئ لو تقبل ذلك وجب عليه أن يكون هذا القبول متفقًا مع ما أقدمه من أسباب، وتقع المسئولية عليه هو".

بيرس (١١ ـ ١ ـ ١٩٦٠)

١٠ ـ إننى أبدأ هذه المقدمة بوصفها طريقة للدخول إلى نظرية للنصوص بمناقشة مضامين البحث التالى. ولست أرى من الضرورى هنا أن أتعرض للكلام فى مدى اتساع نظريات النص وطرق تحليل النصوص. ومع هذا أحس أنه من الضرورى أن أنسب الغرض من هذا البحث بما يتسنى لى من الدقة إلى العمل الحاضر فى هذا الحقل. ومع عقد النية على تحديد اتجاه المنظور المنهجى الذى كونته أرانى أوازن باختصار بين نواحى دراسات تشومسكى وفلسفة اللغة عند فتجنشتاين التى أعانت على إيجاد دوافع لخلق كثير من الأفكار التى تدور حول بناء النصوص واستيعابها. وبعد ذلك أجمع معًا أفكارًا دات دلالة من السيبرنطيقا ومن أفكار C. S. Peirce التى كان لها أثر فى أفكارى الخاصة. وبهذا تكون مقدمتى قد اكتملت بحيث تبدو فى وضع علامة تشير إلى النص

إذا بدت فى صورتـها التامـة أشبه بالأيقونـة أو بخريطة تـحيرت فى مـجاهلها لعـدة سنوات مضت. وقد يصادف القارئ عددًا من الإشارات غير الـمألوفة ولكن الرحلة فى نهايتها ستمنحه كما أرجو له (أو لـها) رؤية لـهذه الـخريطة فى لحظة قدرة على الفهم.

١١ ـ يقول ليبسكى (١٩٧٦ ـ ١٩١) إنه "مع تداخل الدراسات اللغوية الـحديثة الـمكرر فى مـجال الدراسات الأدبية القصصية حدث تداخل صحى متزايد بين التحليل اللغوى وبين الطـرق التقليديـة للبحث الأدبى". وأنا أخشى مع الأسف ألا يكون هذا التداخل قد أدى إلى نتائج مرضية. إن الـمسألة التى تنتظر الإجابة هى: هـل يمكن للدراسات اللغويـة أن تقـدم نموذجًا مناسبًا لتحليل النصوص؟ لا أستطيع فى هذه الـمقدمة أن أحاول حل هذه المسألة، ومع ذلك سأحاول أن أوضح باختصار كيف تـختلف هـذه الدراسة عن نظريات النص السائدة المختلفة والمستندة إلى الدراسات اللغوية.

ولهذا يمكن أن نقول بصفة عامة إن عددًا من عناصر النظريات المعاصرة حول النصوص يدخل فى نطاق نظرية أنشأتـها أكثر منها شمولاً. والفرق الرئيسى بين هذه العناصر وبين نظريتى هو أن سيميائيات النص (كما استعمل المصطلح) لا تختص اختصاصًا دقيقًا بالنماذج اللغوية والأدبية للنصوص. إنـها تشتمل بصفة عامة على ما هو لغوى وما هو غير لغوى (أى معرفى عام) من نواحى النصوص الـمكتوبة. ولـهذا كان من اغراضى أن أقـدم مـادة جديدة ذات صلة بذلك للعرض على انتباه الذين يعملون الآن فى القيام على نظرية النص على وجه الخصوص.

دعنا أولاً نلفت الانتباه إلى البنيوية الفرنسية. فإذا نظرنا إلى النموذج الثنائى الذى قدمه دى سوسير لـمفهوم العلامة sign وإلى السمات الفارقة distinctive feaures التى جاءت بـها مدرسة بـراغ وكذلك جلوسيماتية هيلمسليف فسوف نرى أن معظم البنيويين الفرنسيين يفهمون الثنائيـة بأنـها الـمبدأ الرئيسى لتحديـد

قواعد العقل الإنسانى. ولـهذا جاء (١) افتراض أن الـمنطق الثنائى binary logic هو الأساس لكل النظم الـمشفرة coded لغوية كانت أم غـير ذلك. إنها تكشف بالمغزى purportedly عن ميل العقل إلى تصنيف العالـم إلى هياكل مثنوية تقابلية وإلى بناء رسائل شفرية مشتقة من هذه الـهياكل. ولأنـهم يستندون إلى هذه الأداة التحليلية وجدنا بارث (١٩٦٦) وجريماس (١٩٦٦ب) وكريستيفا (١٩٦٩) وميتز (١٩٧٤ أ) و(١٩٧٤ ب) وتود روف (١٩٦٩) وآخرين يرهصون بالقول بتطابق شكلى بين النصوص والـجمل، ويـخضعون موادهم البحثية لطرق وصفية شبيهة باللغويات البنيوية. هذا الفرض يعنى أن طرق الدرس اللغوى يمكن أن تستعمل لتفسير الأدب بصورة منظمة (٢٠ ـ ٢٤ Culler, ١٩٧٥).

هذا التناول العفوى uncritical للفكر اللغوى قوبل بالاعتراض لأسباب مختلفة (٢) إذا أردنا أن نذكر قليلاً من هذه الأسباب فإن لنا أن نقول إن طرق التحليل البنيوى تميل إلى إنتاج خطط استاتيكية للتصنيف (١٩٧١ Letebvre ١٩٦٨ Ricoeur,)، وأن تبالغ فى استعمال النموذج اللغوى (١٩٧٠ Jamson, ١٩٧٢ Hendriks,)، أو أن تجرد (to abstract) بصورة قصوى شخصيات وأحداث روائية (narrative events) من النص (١٩٦٩ Chatman, ١٩٧٣ Weimann,). أضف إلى ذلك أن بعض التحليلات البنيوية تبدو غير قادرة على تفسير بعض الخصائص المشتركة فى الأدب بين المجاز والتصوير والسخرية والغموض، على حين تفشل تـحليلات أخرى فى إدراك العلاقة بين القارئ والنص إدراكًا دقيقًا (١٩٧٥ Culler,).

ومن منظور يـختلف قليلاً ويتناسب مع تـحليل بروب (١٩٦٨ Propp,) للقصص الشعبية يقترح بريموند (١٩٦٦) منطقًا للأعمال السردية narrative actions، ويـخترع جريماس (١٩٦٦ ـ أ) منـطقًا لوسائـل العمل السردى، كما يقترح تودروف (١٩٦٦) طبقات عامـة للقصص. هـذه الأعمال الـمنطقية أرسطوطاليسية دون شك (لأنـها إما ثنائية الطابـع وإمـا أنـها مبنية عـلى

الـموضوع والـمحمول). والـمشكلة أن هذه النماذج البروبية (نسبة إلى Propp) الـمتعلقة بالنص الأدبى الـمركب نسبيًا تـميل إلى الـحد من الطابع الـمركب للخصائص وتـجعلها وظائف للتركيب (تشاتمان ١٩٧٢). أضف على ذلك أن الدراسات الأنثروبولوجية للقصص الشعبى مثل قصص دنديز (Dundes, ١٩٦٤، و جورجى Geovges, ١٩٧٠ وكولبى Colby ١٩٧٠). جاءت أيضًا على طريقة بروب، ولكن مناسبتها للنص الأدبى مشكوك فيها (هندريكس ١٩٧٣). وقد قيل ما يشبه ذلك بالنسبة لليفى شتراوس فى تحليله للأسطورة (دوناتو ١٩٦٧ و بون ١٩٧٢).

باختصار حاول كثير من البنيويين أن يوجدوا طريقة للتحليل يمكن لـها أن توضح الأقسام والوظائف فى النصوص القصصية. ومع ذلك حاولوا بصفة عامة أن يتقدموا بنظريات تـخطيطية مـحدودة عنـد نظرهم فى نصوص مـحترمة إلى حـد ما. ولقد حاولت مع الاحتفاظ فى ذهنى بـهذا الفشل أن أنشـئ تصورًا أوسع لفكرة من خارج علم اللغـة تتناول سيميائيات النص وذلك عكس ما اقترحه بارث (Barthes ١٩٧٠) ذات مرة من أن علم اللغة يعد خطوة إضافية للسيميوطيقا.

فى السنوات الأخيرة وضعت طرق أخـرى للتحليل من خارج صفوف البنيويين. ولنا أن نذكر من أصحاب هـذه الطرق عددًا قليـلاً. فمنهم مثـلاً أوهمان (Ohmann, ١٩٦٧) الذى رأى أن النص يمكن أن يـجد تفسيرًا جيدًا من خلال تـحليل ما به من الـجمل واحدة بعد الأخرى بواسطة التحليل الإفـرادى لكل جـزء واحد من أجزائه. ولقد حاول عدد من الدارسين من أمثال آرتس (١٩٧١ Aarts,) وفاولر (Fowler, ١٩٦٩) وبوتر (Butters, ١٩٧٠) وليفين (١٩٦٢ Levin,) وثورن (Thorne, ١٩٧٠ ـ ١٩٦٥) وطائفة أخرى أن يدرسوا الأسلوب الشعرى فى حـدود ما يقبله من الترخص فى استعمال اللغة الطبيعية. ثم اتبع ريفاتير

(Riffaterre, ١٩٦٦) طريقة معجمية محددة فى القول بوجود لغة شعرية واحدة. أما هاريس (Harris, ١٩٥٢) ومحللو الخطاب فإنهم يصفون النص بأنه جملة طويلة مبنية بواسطة وسائل ربط. ويذهب جارفين (Garvin, ١٩٦٤) إلى حد القول بأن علم اللغة يهيئ نظامًا دقيقًا للعدد algorithms ضروريًا لتحليل كل صور الفهم الإنسانى. وعند النظر إلى هذا الاتجاه نجد من الضرورى مرة أخرى أن نؤكد أن علم اللغة لا يتحتم فيه بالضرورة أن يقدم إجراء آليًا لشرح كل الظواهر المشفرة (٣). إن الزعم بأن طرق التحليل المستعملة فى علم اللغة يمكن استخدامها مباشرة فى جميع النصوص الأدبية فيه تجاهل لما بينها وبين لغة النصوص، منطوقة أو مكتوبة، من أوجه الخلاف. لقد حدث اهتمام فى الأيام الأخيرة بتناول "نحو النص" من خلال نظريات تخطيطية لإنشاء النصوص باتباع فكرة "المقدرة النصية"text competence (٤). وكان الموضوع المطلوب هو إظهار بديل عن النماذج البنيوية السابقة صالح للنحو التوليدى بتقديم طرق شكلية وكمية للوصول إلى دراسة أوسع وأكثر تنظيمًا للنص الأدبى. ومع ذلك نرى صور نحو النص كما صورها تشومسكى هى فى عمومها تلفيقات تجريدية ليس لها إلا القليل من الفائدة فى نظر دعاة التحليل المهتمين بالدراسات الفنية المتماسكة.

أضف إلى ذلك أن أنصار نحو النص إذ يرفضون الطابع الاستاتيكى الجدولى لتصنيفات البنيويين الأصوليين يرتكبون فى العادة خطأ آخر من حيث يرتضون مع البنيويين أن يحل نموذج لغوى (أحيانًا بلا بصيرة) محل آخر. ولاشك أن بعض العناصر اللغوية يمكن أن تقدم أسسًا لبناء النص (هاليدى وحسن ١٩٧٦، ومير ١٩٧٥). بل يمكن للقواعد أن تراعى حتى تئول فى النهاية إلى تحديد البنية النهائية للقصص (Chatman, ١٩٧٨ Prince, ١٩٧٣ Rumelhart, ١٩٧٥) ولكن ذلك لا يكفى للتأكد من أن النماذج اللغوية المطبقة بدقة ستكشف عن البنية التحتية للنصوص (٥).

إن المشكلة التى تكمن فى الصور الأولى لنحو النص أن أصحابها ركزوا انتباههم أولاً على النواحى النحوية فى النصوص، أو على الدلالات التأويلية تبعًا لكاتز وفورد وتشومسكى. وفى هجمة أخرى لاحقة ضمن عمل مانتاجيو Montagu لإنشاء وسائل للوصف النحوى ودراسات للعلاقات بين التوليدية والمنطق ربما يكون هذا قد ساعد فى علاج جزء من هذه المشكلة (٦). وفى خلال عدد من السنين القليلة الماضية كان هناك اهتمام بالناحية الذرائعية Pragmatic للسرد فى ظل نفوذ نظرية التكلم (see van Dijk, ed,١٩٧٦). إن فاندايك نفسه يفهم أن هذا التغير فى الاتجاه كان نتيجة لإدراك أن كثيرًا من خصائص الجمل وصور الخطاب وكمية من الاتصالات الشفوية بصفة عامة لا يمكن الكشف عن سببها بواسطة النظريات النحوية العادية. ويستمر فى رأيه حتى يقترح أن ما يحتاج إليه الأمر هو "المكون الجدولى" الذى يمكن به للقواعد والشروط والقيود أن تصاغ بالاعتماد على خصائص نظامية للتكلم والنصوص الاتصالية (فاندايك، ١٩٧٦ ـ ٧).

على أى حال لابد من القول إننى أتحاشى التورط فى معظم نظريات التكلم speech acts وواضعى البرامج والذرائعيين pragmatists من حيث يميلون إلى توجيه انتباههم أولاً إلى المتكلم ونواياه فى التكلم. أما أنا فإن انتباهى يرتكز بصورة مباشرة على السامع أو القارئ. أضف إلى ذلك (فاندايك ١٩٧٧ ـ أ، و ١٩٧٧ ـ ب، و١٩٩٨) دعوى أن الاهتمام الحاضر بالعمليات الإدراكية للخطاب يستند أساسًا إلى ما يذكره القارئ من الأحداث التى اشتمل عليها القصص أكثر من أن يكون محاولة لفهم كيفية استنتاج القارئ للمعنى من خلال النص. هذه العملية الأخيرة سوف تكون غايتى فى هذا الكتاب.

١٢ ـ يهيئ هذا القسم خلفية تكونت فى هذه الدراسة هى أن النموذج المناسب لتكوين النص وللإدراك الحسى Perception يجب أن يشتمل على

وصف شكلى للقدرة الإنسانية على اتباع (ولكن أيضًا تغيير) قواعد عرفية تشبه ما قال به فتجنشتاين من استعمال اللغة وبناء النص. وطبقًا لفرضيات رآها تشومسكى (Chomsky,١٩٦٥) يمتلك جميع الناس قدرة ذاتية على استبطان لغة ما واستعمالها فى الكلام. ولن أحاول الجدال لدعم هذه الفرضية أو معارضتها، ولا أن أكون مهتمًا مباشرة برأى تشومسكى بالنسبة للمقدرة اللغوية (Language Competince). ولكننى على كل حال أزعم أن استعمال اللغة يخضع لمجموعة ما من القوانين العرفية ذات الطابع الثقافى التى تفرض المكان والزمان والكيفية التى تنطق بها الجمل، على حين تقرر المقدرة اللغوية قيودًا نحوية ودلالية معينة على ما ننطق به.

ويبدو التعارف الجماعى فى البداية شبيها بما قال به فتجنشتاين من فكرة "المباريات اللغوية" فى حدود "صور جماعية للحياة" يمكن أن تشتمل على مجموعات افتراضية من الطرق الضمنية لنسبة معان للكلمات المستعملة يوميًا فى عملية التكلم (٧). طبعًا لم يدّع فتجنشتاين مطلقًا أن ما يقول به من عرفية استعمال اللغة يفهم على طريقة تشومسكى بأنه شامل وذو طابع عضوى. ومع هذا يبدو كأنه يشير إلى أن أفكارًا من قبيل استعمال اللغة والقواعد والقوانين تعد مظاهر خارجية لأمور لم يتم تحديدها بعد، أو مجموعة من الاحتمالات أو النزعات التى تضبط تكوين الأعراف ذات الأساس الثقافى لتحكم فى أمر ما يقال أو يرد على الخاطر وما لا يقال أو يرد (Disko,١٩٧٦ Pole,١٩٥٨). وسوف افترض فى هذا المجال أن نشأة أعراف مشتركة لاستعمال اللغة يجب أن تكون نتيجة لاحتمال لم يكشف عنه بعد.

لهذا استعمل ما أعتقد أنه المظاهر الضرورية لاحتمالات تشومسكى وفتجنشتاين. ولكننى أحاول ألا أخلط بينهما. وكما أرجو من وجهة النظر العملية أن يتضح فى مجرى هذا البحث أرى أن الفرضين يكمل أحدهما الآخر

بصورة ما، لا أنهما مجرد متناقضين. وبناء على ذلك لا ينبغى أن يخضعا للمقارنة بمستوى واحد (٨). فإذا قورنا على هذا المستوى الواحد فسوف يحدث اختلاط بينهما فى الفهم. وهذا الاختلاط يشبه ما يسميه رايل (Ryle,١٩٤٩) "خطأ فى التصنيف" بالخلط بين كيانين أو أكثر منفصلين فى العادة، أو أقسامًا من هذه الكيانات.

ويلمح فتجنشتاين مثلاً إلى نزعة إنسانية غير معينة تتبع القوانين المحددة ثقافيًا التى تحكم المعنى، على حين يحاول أن يصف استعمال هذه القوانين بألعابه اللغوية الغامضة الحدود. ويعتقد تشومسكى على العكس أن من الممكن أن نكوّن بوضوح مجموعة من قواعد نحوية عامة مأخوذة من طاقات إنسانية خاصة يمكن بها نطق عدد غير محدد أو فهمه من الجمل فى أية لغة طبيعية. كان فتجنشتاين وتشومسكى يتكلمان فى ميدانين مختلفين لا يجمعهما شىء ما. وليس الأمر أن يفترض فى أحدهما أنه سلوكى وأن الآخر عقلانى، أو أن الأسس المعرفية لنموذج كل منهما وطريقته تختلف تمامًا عن ما لدى الآخر. فالأمر المهم هنا أن بؤرة البحث لكل منهما تنبنى على مستويات مختلفة (أنظر Foder,١٩٧٥ ١٩٧٥ Leiber,).

أعتقد أن اختلافًا آخر مثل هذا الذى بين فتجنشتاين وتشومسكى يجب أن يقوم كذلك بين القدرة على إنشاء أو فهم نصوص مكتوبة فى جانب والقدرة على توليد أو فهم اللغة التى كتبت بها هذه النصوص فى جانب آخر، أى بين سيميولوجية هذه النصوص وبين لغوياتها. إن الفشل فى رؤية هذا الاختلاف يساوى ارتكاب خطأ تصنيفى a category mistake. إن الأسباب التى دعتنى إلى القول بهذا التفريق هى كما يلى:

"اللغة هى الوسيط وليست هى النص"

والخلاف بين المستوى اللغوى للنصوص ومستوى ما فوق اللغة ليس واضحًا فى كل الأحوال؛ لأن كل النصوص المكتوبة إنما تكون بالضرورة نتيجة

لاستعمال اللغات سواء كانت هـذه اللغات طبيعية أم مصنوعة. ولسوف أجادل على أى حال بأن النصوص ليست قابلة للنزول إلى المستوى اللغة، ولا يمكن لمجموعات من الأقوال فى النصوص أن تدرس درسًا مناسبًا بنفس الطريقة المستعملة لدراسة مجموعات من الجمل. وكما جرى التأكيد من قبل تواجه هذه الدراسة ما رآه عدد من البنيويين الآخرين الذين يمنعهم اعتقادهم أن النماذج اللغوية تـحول دون تعليل الـخلافات الأساسية بين اللغات والنصوص. إن النصوص تستعمل اللغة لكشف (على مستوى الوعى أو عدم الوعى، وبقدر من الطاقة غير الـمحدودة إلى الآن) عن أفكار جديدة ومفاهيم وآراء ورغبات وعواطف تدور حول العالم وحول النصوص الأخرى. إن تـحقيق ذلك يؤدى أيضًا إلى عيب فى اللغة، مثل إيجاد معان جديدة وصور جديدة للمجاز فى التعبير اللغوى (٩).

"يجب أن توضح النصوص مظهر الحداثة"

ويبدو فى كل نص من النصوص ما يوضح درجة ما (أكبر أو أصغر) مما يوجد من الخلاف بينه وبين كل نص آخر، وإذا لـم يكن هنالك خلاف كهذا فإن النص لن يثـير الكثير من الاهتمام لـدى القارئ. وبـهذا الـمعنى يـجب لكل النصوص أن تبدى على الأقل مظهر الـحداثة. هذا الـمظهر الـموحى بحداثة النص هو النتيجة الـمناسبة للطابع الـمجازى للتعبير الـمختفى وراء الـمظهر اللغوى للنص، وهو ما أريد أن أسميه "النظام الرمزى" للنص. إن الـحداثة التى توجد مثلاً فى النصوص العلمية ستنبنى على مناقشات جادة وبناء افتراضات ونماذج بواسطة البديهيات والقضايا والعبارات الاستدلالية، وربما بنيت على عبارات الملاحظات. أما الـحداثة فى النصوص الأدبية فهى على العكس من ذلك مبنية على الـمنظور الجمالى. ولـهذا يمكن القول إن جوهر النصوص الأدبية ذو طابـع ذاتى فى الغالب لا أنه عقلى. وسوف أجادل على أى حال بأنه ليس هنا أية حدود بين

نوعى النصوص السابقة، وهو ما يعد من الناحية الجمالية مبعثًا لارتياح أكثر من أى دليل رياضى مقنع. ومن هذه الناحية ينشأ مظهر الحداثة للنصوص من مصدر إدراكى واحد.

"تعتمد الحداثة على منظور ذى حدود ثقافية"

فالقدرة على بناء مظهر الحداثة أو إدراكه فى جميع النصوص تمثل مقدرة معينة تختلف عن المقدرة اللغوية. إنها لا تستلزم entails قدرة نوعية خاصة لتطبيق القواعد النحوية، ولكنها تستدعى قدرة على خلق الفروق difference والإحساس بها بواسطة وسائل محددة عرفيًا (قواعد) لاستعمال اللغة لإيجاد النصوص، وترجئ defer الطرق العرفية لصوغ الفروق difference وتمييزها بواسطة صياغة مجموعة أخرى من الأعراف. إن الخلط بين المقدرة اللغوية أو الاستعمال اللغوى ذى القدرة العادية على بناء الحداثة النصية وإدراكها وبين إفساد الأعراف الاستعمالية اللغوية المحكومة عرفيًا، هذا الخلط يعد مستوى من الخطأ الذى تكلمت عنه من قبل.

"إن القدرة على إنشاء أو إدراك الحداثة هى نتيجة لآلية إدراكية لما فوق اللغة"

هذه الآلية الإدراكية ليست هى ما يمكن فهمه بوصفه آلية لغوية فطرية. ولو كانت كذلك لكان لنا ميل دائم إلى إنشاء النصوص وفهمها بنفس الطريقة التى تستعمل بها الجمل النحوية الصحيحة لا أن يتم تجاهل الصواب اللغوى لاستعمال وفهم الصوغ الفنى أو العلمى أو صورة أخرى للفهم. إننا نعزم دائمًا على كتابه كلمات أدبية أو قراءتها بطرق عادية لا بكلمات مجازية أو استعارية. إننا ببساطة نتصور أو ندرك بطريقة آلية عددًا غير محدود من الجمل الممكنة، ولكننا يمكن أن نعجز عن إبداع الجديد من الأفكار وعن القدرة على الخلق وتحليق الخيال. باختصار لن يكون هناك إدراك للأسباب المؤدية لمحاولة الخروج من مجموعات ما نستعمله من المعايير.

لهذا سأحاول فى هذه الدراسة أن أبنى نماذج افتراضية واستنتاجية يمكن أن توضح الإدراك الآلى من أجل بناء وإدراك ما لا نهاية له من الفروق فى عدد غير محدود من النصوص على طول مدى من الزمن غير محدود.

١٣ ـ هناك حدس conjecture مصدره النظرية السيبرنطيقية وهو ضمنى فى هذه الدراسة، ذلك أن صوغ النصوص وفهمها يتطلب نوعين متكاملين من الإجراءات: الأول أن النطق بالمعنى اللغوى المثالى يمكن أن يوصف على مستوى من البساطة، وعلى الجانب الآخر تكشف النظم النصية عن مستويات من التعقيد أو التنوع. ومع أن منتهى التقابل والتعارض يمكن كما يقول جاكوبسون (Jacobson & Halle,١٩٥٦) أن يوجد على مستويات بسيطة من التنظيم تقريبًا نجد أنه عندما يزيد التعقيد يبدأ توالى الفروق فى الحلول محل الوحدات المتقطعة فتتخلى هذه الوحدات المتقطعة عن مواقعها للفروق المتوالية (Laszio,١٩٧٢). لهذا يكون للنواحى فوق اللغوية من النظم النصية قسط أقل من الحدود المختصرة، ولكن لها إلى جانب ذلك لبس وغموض وتعدد لاحتمالات المعانى أكثر مما يكون لها من أنظمة اللغة.

ولهذا أيضًا يمكن بصفة عامة أن يقال إن درجة التنظيم والتعقيد تتزايد عندما تتناقص البساطة التركيبية أثناء الانتقال من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى. وهكذا تكون الحال عندما نتقدم مثلاً من الذرّة إلى الجزئ وإلى الكائن العضوى organism، أو بالنظر إلى بحثنا الحاضر من الفونيم إلى المورفيم إلى الجملة إلى النص (Koestler,١٩٦٩ Polanyi,١٩٥٨). وبهذا المعنى ليس من الضرورى أن تتساوى القوانين الدنيا الأقل تعقيدًا التى تحدد الترتيب والتعضية مع القوانين المحددة للنظم الأكثر تعقيدًا (١٠).

أضف إلى ذلك أن هذا التمييز بين البساطة التركيبية والتعقيد التنظيمى يتصل بالفكرة السابقة من أن كل الناس يبدو عليهم أنهم يختلفون إلى حد ما من حيث

طرقهم اللغوية والفكرية. ومخالفة الطرق المعتادة فى ضوء نظرية السيبرنطيقا تحض على مناقشة مختصرة، وإن كانت مبررة، لمبدأ استهلاك الطاقة entropy. وكما يقول القانون الثانى من قوانين الديناميكية الحرارية: يميل النظام الفيزيقى المقفل إلى أن يتجه إلى تزايد استهلاك الطاقة (أى إلى حالة من تزايد احتمالات "الفوضى") (١١).

لو أن أحد نصفى قضيب حديدى جرى تسخينه مثلاً وجرى تبريد النصف الآخر فسوف ينشأ ترتيب نظام يعد وقوعه فى الطبيعة أمرًا غير محتمل تمامًا. ولو فرضنا أن السخونة لم تنته وأن القضيب الحديدى يمثل نظامًا مثاليًا مقفلاً فإن درجة حرارة القضيب بعد وقت معين لن تختلف بين طرف منه وبين الطرف الآخر. فلقد نقص النظام عند وصول القضيب إلى أقصى حالاته. ومن المهم أن نلاحظ بعد هذا المثال البسيط أن: أ ـ القانون الثانى للديناميكا الحرارية يتطلب وجود نظم مقفلة، وب ـ أن زيادة غير طبيعية فى تنظيم أى نظام عضوى تتطلب تدخلاً من لدن نظام بيولوجى (أحيائى). إن الكائنات غير العضوية تختلف عن الأحياء العضوية من حيث المحافظة على وجودها فى حالة متجددة من نفى الاحتمالات، وفى حالة التطور العضوى تتحول إلى نظم متنامية التركيب. ويتحول هذا إلى مقياس لطاقة غير مستفادة entropy.

وتقف كل الأنظمة الحية وقفة التحدى للقانون الثانى للدينامية الحرارية، لكن هذه النظم الحية لا يمكن لها أن تنعزل انعزالاً تامًا. فهى لا تكون أبدًا فى حالة توازن ثابت، بل إنها تنفتح دائمًا على عالمها الخارجى، وتحقق تبادلاً مستمرًا للمادة والطاقة مع هذا العالم. إن النظم المفتوحة لا تتطلب اعتبارات الدوام، بل تتطلب التغيير. وهى لا تتطلب التوازن، ولكن تتطلب الميل فى اتجاه عدم التوازن. وتتجه إلى مستويات متزايدة التعقيد والتغاير والتعضية أكثر مما تتجه إلى أبسط الأحوال الممكنة (١٢).

إن المعرفة epistemology بالنظم المفتوحة لا تتطلب الاحتفاظ بمستويات ذات بساطة نسبية فقط (حركة فى اتجاه الطاقة غير المستفادة entropy) بل إن فكرة الانفتاح تسمح بإمكان إعادة بناء نظام واحد أو أكثر، وإعادة إحكام أنظمة عليا معقدة (حركة فى اتجاه عكس نفى الطاقة غير المستفادة negentropy).

بهذا الفهم، وبحسب الاهتمامات الحاضرة، يمكن القول بأن الخطط التصورية التى تعودنا بها أن ننشئ نصوصًا أو نتصورها إنما هى دائمًا عرضة للتغير. ونحن نحدث هذا التغير نتيجة للتوتر والارتباك المعتاد فى طرق تفكيرنا وتعبيرنا. إن التغير فى خططنا الفكرية وفى بنائنا وفهمنا للنصوص لا ينشأ عن مجرد توالى تكوين طرق أبسط مرونة لأفكارنا وتعبيراتنا وطرق إدراكنا. فهى أيضًا تمثل كما سأناقش ذلك تدرجًا فى تعقيد وجهة نظرنا الذاتية فى العالم المتفاعل مع البيئة الخارجية دائمًا وبصورة مستمرة.

إذن يكون هناك أمران أساسيان مختلفان تمامًا: أ ـ الأول تزايد البساطة، التقابل semmtry، الانتظام regularity، البناء structure، ب ـ والثانى تزايد التعقيد العضوى. يمكن أن نسمى المبدأ الأول مبدأ التوازن homeostatic وهو الميل من خلال نظام مقفل إلى شكل ثابت للتوازن (Ashby, ١٩٦٠). أما الآخر فيمكن أن نصفه بأنه من قبيل التكون الشكلى morphogenetic، أى إظهار دائم لعدد من البنيات الجديدة بواسطة تحطيم breachment بنيات أقدم منها، ودوام حالة عدم توازن disequilibria (Maruyama, ١٩٦٣). إن الحالة الأولى كما حددتها هى طاقة كبرى غير مستفادة large entropic فى اتجاه حالة اجتماعية متزايدة. وأما الأخرى فإنها نفى لهذه الطاقة فى مواجهة الوضع السائد. وعلى المستوى الأدنى فى كل البنيات النظامية تعد البساطة هى العنصر السائد، أما على المستويات العليا فإن التعقيد التنظيمى يتزايد.

لـهذا لا يمكن الإحاطة ببناء أنـواع النصوص وإدراكها بواسطة مـجرد الـمعرفة epistemology بالأنظمة الـمقفلة الثابتـة للطبقات اللغوية الـمتشابكة. والنصوص فى طابعها مكونة من جـزر ebb ومد flow للأفكار وحالات الـحدس، بل حتى من العواطف التى لا يمكن إيضاحها إلا بنموذج يستلزم مـجموعة من الاتـجاهات التكاملية بـين الركود statis والـحركة dynamism، والتوازن والتباين، والانقفال والانفتاح، والتفرد الشكلى والـمطابقة للنوع.

إن ما سـبق يقودنـى إلى اعتقاد أن النموذج الـمناسب لبـناء النص وفهمه يـجب أن يكون مناسبًا بصفة عامـة لما وضعه بيرس Peirce من نظرية الـمعرفة epistemology. إنه يـخبرنا باختصار أن كل العلامات تـحيل إلى علامات أخرى تـحيل بدورهـا إلى علامـات ثالثـة بـلا نـهاية. ليست هناك علامـات بـلا وساطة (١,٣٣٩، ١٩٦٠ ,Peirce). أضف إلى ذلك أن التفكير كلـه يتم بواسطة العلامـات (٦,٣٣٨، ٥,٢٥٣، ١٩٦٠ ,pierce). والـحقيقة أن الأفكار أنفسها من قبيل العلامات، ويؤدى ذلك إذن إلى أن جـميع الأفكار تـحيل إلى أفكار أخرى. ولذلك لا توجد مـجموعات من الأفكار الأولية للرموز البديـهية، بل على العكس من ذلك كل الـمعرفة تشبه العلامات من حيث تأتى معهودة بواسطة معرفة سابقة.

إن مـن ينشـئ العلامـات ويفهمها ليس مراقـبًا منعزلاً، ولـكنه مشارك دائمًـا فى عالـم العلامـات. فـالفكر علامـة، والإنسـان هـو الفـكرة. ويـترتب عـلى ذلـك أن النـاس والكلمات فى حـال تبـادل لـمهمة التثقيف. فـكل زيـادة فى الـمعلومات لـدى النـاس تعطـى وتأخـذ مـن خـلال زيـادة دلالات الكلمات عـطاء مطابقًـا (٥,٣١٣، ١٩٦٠ ,Peirce). بـهذا الـمعنى تصبح الـمعرفة وسيلة لتصحيح ذاتـها. فهى تشبه نظامًا سيبرنطيقيًا ذا مـردود دائم، ونظام الـمعلومات عند بيرس يستمر فى التغير وفى التحسن. وحين يتغير يقترب من الـحقيقة، ولكن

كون الإنسان معرضًا للخطأ لا يسمح باستيعاب الحقيقة (١,١٨٠، ١٩٦٠ .(Peirce,

إن النموذج الذى يوضع للنصوص التى يجرى بناؤها هنا طبقًا لنظرية بيرس السيميوطيقية يشمل النظم اللغوية باعتبارها مجموعة فرعية. إنها تستلزم فكرة التفاعل المستمر بين الإنسان والأفكار والعلامات التجريبية التى يستعملها.

١٤ ـ يأتى تنظيم الأجزاء الأربعة لهذه الدراسة على النحو التالى: ينقسم كل فصل منها إلى أقسام، وينقسم كل قسم إلى أجزاء، وكل جزء إلى فروع تتكلم عن طبيعية المادة التالية. وسيكون للفصول والأقسام والأجزاء نظام ترقيمى. فمثلاً سيكون معنى الرقم التالى ٤٢، ٢ أن القارئ قد وصل إلى الجزء الثانى من القسم الرابع للفصل الثانى. أضف إلى ذلك أننى خصصت ورقمت خلال النص مجموعة من التعريفات والمقترحات التى تتصل بالنموذج الذى أتصدى لبنائه. وأرجو أن تتذكر (أيها القارئ) أننى لا أنوى ولا أستطيع فى الحقيقة أن أطمع فى الوقت الحاضر أن أتقن هذه التعريفات والمقترحات بأى معنى مطلق. فهذه التعريفات والمقترحات قصد بها أن تكون نقاطًا للإحالة تدور حولها عباراتى. أما أنت فسوف تكون مسئولاً بقدرتك الخاصة عن اتخاذ قرار نهائى حول درجة صلاحها. وأرجو بهذا التنظيم أن أكون قادرًا على تحويل هذا المدى المختلف من الأفكار التى أحاول جمعها إلى الوضوح النسبى.